اللغة والكتابة في ثقافة العرب القدامى
دراسة تاريخية تحليلية

ملخص

يواجه كل باحث يتصدى للبحث في اللغة والكتابة لدى العرب القدامى إلى صعوبات كثيرة، بسبب غياب الدراسات الشاملة المفصلة عن العلوم والفنون والأدب، ولكنه قد يعثر على شذرات معرفية هنا وهناك.

ومرد هذا النقص في المادة التاريخية حول اللغة والكتابة يعود إلى ضياع الوثائق وإهمالها لأسباب تاريخية عرفتها البلاد العربية قديما وحديثا.وإذا تتبع الباحث ألفاظ لغة العرب القدامى وتقصي جملها وتراكيبها واستقراء تعابيرها في المجاز والاستعارة ومختلف فنون البلاغة وجد أن جل ألفاظها، ألفاظ حرب وضرب وطعان ونزال ووصف وغزل وشوق في أروع بيانها وأبرع تشابهها.

د. الطاهر دراع
قسم التاريخ
جامعة أدرار
الجزائر

Résumé

Les chercheurs dans le domaine de la langue et de l'écriture chez les arabes confrontent plusieurs difficultés à cause de l'absence des études exhaustives et détaillées sur les sciences, l'art et la littérature, à part quelques rares références.

Cet article se propose d' étudier l'écriture arabe et ses formes, ainsi que sa distribution et son évolution historique chez les arabes.

يحلل هذا المقال ثقافة العرب القدامى والمتمثلة في اللغة والكتابة وتطورهما.

يواجه كل باحث يتصدّى إلى الكتابة في موضوع تاريخ الثقافية في المجتمع العربي القديم صعوبات جمّة بسبب غياب الوثائق والدراسات العلمية المفصلّة عن العلوم والفنون والآداب. إذ لا يستطيع الباحث أن يعثر، إلا على شذرات متناثرة بل هنا وهناك حول الملوك والأيام والأسر الحاكمة، اللهم إلا إذا استثنينا الكتابات: المعينية والسبائية واللحيانية والثمودية والنبطية والعربية الشمالية. وإذا كان بعض الكتّاب [1] قد حاولوا في فترات

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2008.

مختلفة المساس بجوهر الثقافة العربية القديمة وآدابها الرفيع فإن بعض علماء الأمة ومثقفيها من الذين درسوا هذه الثقافة وميراثها الثري قد كشفوا مشاريع ؤولئك الكتاب المحرفين عن قصد أو عن غير قصد، وقدموا دراسات علمية مختلفة، تؤكد مدى ثراء هذا التراث العربي القديم وتنوعه، وسلكوا في ذلك مسالك شتى:
منهم من درس تاريخ العرب من خلال الأدب وحده وألّف في ذلك أسفارا، ومنهم من قسم هذا التراث إلى موضوعات وفنون درس كلّ نوع منها في سفر قائم بذاته، ومنهم من حصر دراسته على الشعر وحده دون غيره من الجوانب الثقافية الأخرى، ومنهم من كان يجمع في دراسته بين الشعر والنثر معا. وانطلاقا من هذه الإشكالية، فإننا سنعتمد كلّ الكتابات التاريخية والأدبية والجغرافية والدينية في هذا المقال واستشفافها من مصادرها القديمة ملتمسين الحقيقة التاريخية أينما وجدت، ولكننا سنركز في هذا المقال على عنصرين أساسيين وهما اللغة والكتابة.

أولا : اللغــة

إذا تتبع المرء ألفاظ لغة العرب القدامى وتقصى جملها وتراكيبها واستقرأ تعابيرها في المجاز والإستعارة ومختلف فنون البلاغة وجد أنّ جلّ ألفاظ هذه اللغة ألفاظ حرب وضرب وطعان ونزال ووصف وغزل وشوق في أروع بيانها وأبرع تشابهها، حتى إذا توقفت الحرب ومات الشوق واختفى المحبوب وشيع الواصفون والقائلون المتيّمون من ذكر وقائع الحرب وآلاتها وعذاب الحبّ ومعاناته، واندفعوا إلى السلم الموقوت والحياة العادية الساكنة، لم يتركوا أوصاف الحرب ولا ذكر أدواتها حتى في اللهو واللعب [2].

وقد ظلّ السيف بأيديهم يشيدون بلائه في الحرب وفي السلم << جعلوا السيف نظرات الغيد في المعارك وجروحا في قلوب العشاق المعاميد وشبهوا به تلألؤ الصباح أو ساقوا فنون الكلام فقالوا: " أمضى من السيف"، إلى آخر ما يستطيع المتتبع أن يجده في كلام العرب وهو غزير فياض >> [3].

أما الرمح فقد عاش في أيدي الفرسان طعانا في البرازي، يلتمع سنانه، فهو أزرق كأنياب الغول يخترق الصدور، ويدمي النحور، فإذا أصبحوا في السلم جعلوه قوام الحسان، وإذا حان البيان قالوا متين العود كأنه رمح قائم، وأكثروا في شبه ذلك وأفاضوا.

أما النبال في القتال فقد قارنوها بالعيون الفواتن وشبهوا جعب السهام بأجفان الغوالي الرعابيب.

كما جعلوا من الخيل والسباق والصيد والصحراء والفخر والمدح والرثاء والهجاء والوصف والحكمة والأمثال والأساطير والمعتقدات الدينية والتشبيه، مصدرا لإثراء اللغة العربية واتساعها للتعبير عن المقاصد والأهداف والمشاعر والمخيلات، فكوّنوا بذلك كلّه ثقافة عربية أصيلة تتصل إتصالا وثيقا بمجتمعهم، ولكنها قادرة على التكيّف والتطور والامتداد إلى ثقافات أخرى وامتصاصها واكتساب ألفاظ وتعابير جديدة لتطعيمها وتجديدها على الدوام، لأنّ الثقافة ولسانها اللغة كيان حيّ متطور يتميّز

بالديمومة والتكيف إذا كان يتمتع بقدرة الهضم والاستيعاب والإستئناس بثقافات ولغات أخرى.

ومن هنا فإن ثقافة العرب هي نتاج تاريخهم الطويل تمتد جذوره إلى مئات السنين قبل الميلاد.

وتتكون الثقافة العربية من معارف علمية وتجارب يومية ونشاطات عملية اجتماعية واحتكاكات خارجية مع البلدان المجاورة، التي إقتحمت في ميدان الحضارة والإبداع أو ممن ساكن العرب أوعايشهم من الأجانب.

وإذا كانت الثقافة نتاج تاريخ العرب لماضيهم الطويل، فإن اللغة هي الأداة المعبرة عن هذه الثقافة ومعلم من معالمها الرئيسة، وأن أية لغة كانت هي حصيلة اجتماعية ونتاج تاريخي اجتماعي، وهي إحدى الوقائع الاجتماعية الفاعلة المؤثرة في سياق الوجود الاجتماعي وديمومته تبقى ببقائه وتزول بزواله[4].

ودراسة اللغة في هذا السياق هي وسيلة هامة لمعرفة الآراء والأفكار والمشاعر والرؤية الواقعية في المجتمع العربي القديم.

لقد عاش العرب قبل الإسلام على شكل عشائر وقبائل وكان لكل قبيلة أو مجموعة قبائل لهجتها الخاصة بها، وقد قسم علماء اللغة العربية هذه اللّهجات إلى مجموعتين:

الأولى هي لغة العرب الجنوبيين وهي العربية القحطانية.

أما **الثانية** فهي لغة الشماليين وهي عربية القبائل العدنانية، ولكلّ مجموعة لهجات محلية مختلفة عن الأخرى.

وفي هذا السياق يقول الطبري[5]: <<كانت العرب وإن جمع جميعها اسم أنهم عرب، فهم مختلفو الألسن بالبيان، متباينو المنطق والكلام، وان ألسنتهم كانت كثيرا>>.

إنّ اللهجات العربية الجنوبية والشمالية رغم تباينها مع بعضها البعض، فإنها تنتمي حسب اللغويين إلى الأصل السامي الواحد، غير أنّ لغة الجنوبيين اختلفت نوعا ما عن لغة الشمال مما حدى بعلماء اللغات إلى اعتبارها من لغات القسم الجنوبي للمجموعة السامية.

وقد تفرعت إلى لهجات حسب مراحل الحكم المتتالية مثل: اللهجة المعينية والسبئية والحميرية.

ولكنها أصيبت بشيء من الضعف بعد ظهور الانحطاط في دول اليمن، ولم يبق منها سوى النقوش والكتابات، التي عثر عليها الأثريون من مستشرقين ورحالة أوروبيون ونقلوها إلى أوروبا، وهناك عكفوا على حلّ رموزها والوصول إلى معانيها، تمكن كل من العالمين: **"أو سيندر"** (Osséder) و"زوديكر" (Zodékar) من قراءتها بعد فكّ رموزها، ويسمى الخط الذي كانت تكتب به هذه اللغة "الخط المسند"، لأنّ حروفه تشبه الخطوط المستقيمة المتعامدة التي يستند بعضها على بعض.

وتتألف أبجديتها من تسعة وعشرين (29) حرفا هي الحروف العربية الثامنة

والعشين حرفا (28) المعروفة، مضافا إليها السين الثانية، وهي مقتبسة من الأبجدية التي اكتشفت مؤخرا في "سرابيط الخادم" بسيناء. ويبدو أنها أصل الأبجدية الفنيقية أيضا.

أما الكتابة اليمنية القديمة فليس لحروفها حركات في أواسط الكلم تحدد النطق بها لذلك فإن ضبط النطق بها مسألة استنتاجية.

وبناءا على رأي بعض الداريسين [6]. فإن غنى اللغة العربية يعود إلى كثرة المسميات وتعدد لهجات القبائل والعشائر في المجتمع العربي القديم.

ولا يمكن للغة أن تكون ثرية، إلاّ إذا كثرت المسميات والمخترعات والألسن ونحو ذلك، والعرب القدامى ورغم تشت العرب القدامى وتناحرهم في البيئة الصحراوية، فإن روابط متعددة ومتينة ظلت تربط تلك القبائل وتوحدها في أمة متكاملة، ومنها الرابطة اللغوية التي تولدت منها الفعالية الأدبية وكذلك الظروف المعاشية والبيئية المتشابهة والعادات والتقاليد، التي كانت تتحكم في أحاسيس ومشاعر الفرد والجماعة على حد سواء، كل ذلك كان يشكل الروح التلاحمية لتلك الفعالية الأدبية، والتي ظلّت في منأى عن التقوقع والسكون القبلي.

والحق أنّ الفعالية الأدبية ظلت في استمراريتها المتكاملة دون أن تكون هناك أية فوارق في الملامح الشكلية أو المضمونية بين أدب القبائل جميعها [7].

وجملة القول أنه بالرغم من تعدد اللهجات العربية واختلافها بين القبائل والعشائر، فإن الدارس للأدب العربي القديم يلاحظ مثلا أن أدب المعلقات كان أدبا متلاحما رغم أنه الشعراء كانوا ينتمون إلى قبائل متعددة بدءا من امرئ القيس وانتهاء بالحارث بن حلزة ولا نجد أي تفرد أو اختلاف في الاتجاه العام لهذه المعلقات، بل فإن المعلقات جاءت متماثلة ومشتركة في كثير من الصفات والمحتويات الداخلية فيما بينها تجعلها في سياق واحد تمثل الشعر العربي القديم في مرحلة الدراسة.

وقد أثبت هذا الترابط والالتحام مختلف الدراسات الأدبية الحديثة التي أنجزت حول هذا الموضوع.

ثانيا: الكتابـــة

درسنا في المبحث الأول من هذا المقال اللغة العربية ومصادر ثرائها و عوامل تطورها لدى العرب القدامى في الجنوب والشمال على حدّ سوى، ورأينا كيف أنّ غناء هذه اللغة يعود في الأساس إلى كثرة وتنوع المسميات والإبداعات الإنسانية في المجتمع القديم.

أما في هذا المبحث فسنحاول تلمس الكتابة وأشكالها ومدى إنتشارها وتطورها عند العرب في مرحلة الدراسة مع إيراد الأدلة المختلفة، التي تثبت وجود وأهمية الكتابة في تلك العصور القديمة, رغم ما كان يشاع لدى بعض الكتاب والمفسرين، من أن العرب كانوا أميين لا يقرؤون ولا يكتبون، وإنما كانوا ينظمون الشعر والأدب عموما مشافهة بالسليقة، ويفسرون بعض الآيات القرآنية على أنها تنفي معرفة العرب

القدامى للكتابة بيد أن الواقع يثبت عكس ذلك, وسنحاول في هذه الدراسة أن نتطرق إلى بعض المصادر التي تؤكد ما ذهبنا إليه ومنها:

أ- القرآن الكريم: كان القرآن أكثر المصادر توضيحا لهذه المسألة، فكيف يمكن للمرء أن يتصور تواصل التراث العربي القديم عبر العصور والأجيال عن طريق التواتر والمشافهة، ونحن نعلم اليوم أنّ كثيرا مما وقع قبل بضع سنوات فقط ينسى ويطمر لولا البحث والتنقيب عنه بين المصادر المختلفة.

حقا أنّ المعارف في ذلك الزمن لم تكن بالحجم نفسه الذي هي عليه اليوم، ومع ذلك فإنه من الصعب جدا أن تصل إلينا المعلقات السبع أو العشرة مثلا أو بعض الأحلاف والمعاهدات والمواثيق التي أبرمت بين القبائل العربية أو بينها وبين الدول المجاورة دون أن تكون مدونة على الرقائق أو الأدم أو الصخور ونحو ذلك من أدوات التوثيق.

والكتابة في الواقع هي وسيلة أساسية للتواصل المعرفي بين الناس، تستعمل لنقل اللغة وحفظها وتدوين الحقائق والمعلومات عبر الزمان والمكان. وتعود كتابات العرب القدامى من حيث خطّها وأبجديتها إلى قلمين هما:

القلم المسند أو قلم حمير والقلم النبطي[8].

ومن الشواهد القرآنية التي تؤكد وجود الكتابة وأهميتها عند العرب قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل،ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا... ﴾[9].

ومعنى هذه الآية أنّ العرب، الذين نزل عليهم الفرقان كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وإلاّ ما كان القرآن يأمرهم بالكتابة والتدوين لعقودهم المختلفة.

أما الآية الثانية التي تؤيد ما ذهبنا إليه فهي قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا لهم فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾[10].

وقوله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [11]. وهذه الآيات التي بها ذكر القلم والكتابة والزبر وغيرها من وسائل التقييد والتدوين ما هي إلاّ تأكيد لما ذهبنا إليه بأن العرب كانوا يعرفون القراءة والكتابة.

ب- الشعر العربي القديم: أما الدليل الثاني الذي يجعلنا على يقين من أن العرب القدامى، كانوا يجيدون القراءة والكتابة في المجتمع القديم، فهو الشعر وما يتضمنه من إشارات صريحة تثبت استعمالهم للكتابة في أمور حياتهم اليومية في أغراضهم المختلفة وهو كثير ومتعدد الأهداف. قول الحارث بن حلزة [12] في شأن بكر وتغلب:

وا ذكروا حلف ذي المجاز ومـا قدّم فيه العهود والكلفـاء

حذر الجو رو التعدي وهل من قضى ما في المهارق والأهواء

إنّ هذه الأبيات هي دليل قاطع على تدوين العرب القدامى لعهودهم ومواثيقهم بالكتابة لا بالمشافهة، إذ لا يتصور المرء أن تحفظ البنود المسطرة بينهم في المعاهدات والاتفاقيات في الذاكرة، دون حفظها في رقاق أو في عسب النخل أو الأدم (الجلد).

ويبدو أنّ أهل اليمن كانوا مهرة في إعداد الأدم حادقين في صناعة أدوات الكتابة الأخرى كالعسيب [13]، الذي ورد في شعر امرئ القيس [14]:

لمن ظلّ أبصرته فشحاني كخط زبور في عسيب مان

وهذا البيت أيضا بشير بجلاء إلى الكتابة حين ذكر خط زبور، وهو خط الكتابة المزبور ومنه أخذ معنى القلم عندهم حين أطلقوا عليه اسم "الزبور".

وقال عمرو بن أحمر [15]:

ألم لا تزال ترجى عيشة أنفار لم تزج قبل ولم تكتب بها زبر

وفي البيت إشارة إلى زبر داوود عليه السلام وصحفه التي كانت مكتوبة .

أما أبو ذؤيب الهذلي [16] فقد قال:

هرفت الديار كرقم الدواة بزبرها الكاتب الحميري

فالمسألة واضحة إذن من خلال هذا البيت في جنوب شبه الجزيرة حين يشير الشاعر إلى كتاب زبر أي أقلام حمير، التي كانوا يكتوبون بها والمحبرة التي يستعملونها لوضع الحبر، الذي يكتبون به على الرقم.

وتذكر بعض المصادر أن النابغة "الذبياني" كتب قصائد اعتذار بعث بها إلى الملك "النعمان بن المنذر"، و هذه الرسالة لا نتوقع أن تكون شفاهية وإنما كانت مكتوبة حقا، تذكر هذه المصادر نفسها وجود معلمين في المجتمع العربي القديم مثل: "عمروش زرارة"، و"غيلان بن سلمة بن متعب"، الذي جاء بعده في الطائف "يوسف بن الحكم الثقفي".

ويذكر أن "لقيط بن يعمر" الأيادي، كان كاتبا في ديوان "كسرى"، يكتب بالعربية والفارسية، وقد أرسل إلى قومه خطابا يحذرهم فيه من "كسرى" فقال:

هذا كتابي إليكم والنذير لكم لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا

فإنّ الليث كسرى قد أتاكم فلا يشغلكم سوق النقاذ

وهذا الخطاب المرسل إلى عرب الجزيرة يعني انهم كانوا "يجيدون القراءة والكتابة وإلاّ كيف يتصور المرء إرسال هذا الخطاب دون أن يكون له قراء؟".

وإذا تقدمنا رويدا رويدا نحو عصر نزول الرسالة المحمدية، فإننا نجد كتابا بارزين كالإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم ونحو ذلك بل فإننا نجد كتاب الصحيفة او المعاهدة التي أبرمت بين المسلمين واليهود في المدينة المنورة على عهد محمد بن عبد الله صلى اله عليه وسلم قد كتبت باللغة العربية.

ج- النصوص التراثية: أما بالنسبة **للنصوص التراثية** وأقوال العلماء وحكمهم في هذا المجال، فهي لا تقلّ عما تحدثنا عنه في المجالين السابقين.

ومما جاء على لسان الجاحظ [17] في هدا السياق قوله: << كانوا يدعون للجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيما للأمر وتبعيدا عن النسيان>>، فبناءا على هذا النص، فإن الكتابة العربية كانت سائدة بينهم في تسجيل العهود والأحلاف وتوقيع الهدنة بين الأطراف المتنازعة.

حقا أنّ الكتابة لم تكن سائدة عندهم في كلّ شيء باعتبار أن الحياة البدوية، كانت هي الغالبة على المجتمع العربي القديم، غير أنها كانت موجودة وحاضرة في المسائل الكبرى كإبرامهم العهود، أو في المراسلات بين الكبار أو في تسجيل أحداث هامة تقع هنا أو هناك لاسيما في الحواضر الكبرى.

وقد حدّد "الطاهر مكي" [18] في كتابه **"دراسة في مصادر الأدب"** مجالات الكتابة والتدوين عند العرب القدامى في المسائل الآتية فقال: <<فقصّروا تدوينهم على ما اقتضته الضرورات الاجتماعية والاقتصادية من الصكوك والعهود والأحلاف والمواثيق>>.

أما "ناصر الدين الأسد" [19] فقد قال في هذا المضمار: <<لعلّ الموضوع الذي كانوا يكتبونه وكانوا حريصين على كتابته ما وسعهم الحرص، هو هذه العهود والمواثيق والأحلاف، التي يرتبطون بها بينهم أفرادا وجماعات>>.

إذن فهذه المصادر، وإن كانت متأخرة عن مرحلة الدراسة، فإنها تعدّ أساسية في استجلاء الحقائق التاريخية، التي حفلت بها سجلات المجتمع العربي القديم، وهي تتفق على أن عرب شبه الجزيرة كانوا يجيدون القراءة والكتابة ويستعملونها في معاملاتهم اليومية على الصعيدين الداخلي والخارجي، غير أنه يمكن القول أن القطاعات الاجتماعية، التي كانت تعرف القراءة والكتابة محصورة في طبقة الشعراء والأعيان وسادة القبائل وأشرافها، وخاصة من كان يتنقل عبر بلاد فارس والحبشة والروم، ويتصل بقياصرها وأباطرها وملوكها ونحو ذلك من الفئات الاجتماعية ذات المكانة المرموقة في المجتمع، علاوة على طبقة رجال الدين من الأحبار والرهبان، الذين كانوا على الديانة اليهودية والمسيحية، ولهم دراية بالكتب المقدسة مثل التوراة والانجيل والتلمود.

وهكذا فإذا كان العرب يهتمون بتدوين عهودهم وأحلافهم- كما سلف الذكر- فكيف يعقل أن نتصور أنهم لم يدونوا قصائد فحولهم من الشعراء، وهم الذين كانوا يدافعون عنهم وعن شرفهم ويذودون عن حياضهم ويسجلون وقائعهم وأيامهم ويذكرون فيها انتصاراتهم ومآثرهم ويصفون بطولاتهم وشيمهم في الحرب والسلم [20] .

د-النقائش: وبالإضافة إلى الأدلة المتقدمة سنحاول في هذا البحث أن نتتبع بشيء من الدقة موضوع النقائش المتأخرة، التي عثر عليها في مناطق شبه الجزيرة العربية.

ترجع كتابات العرب القدامى من ناحية الخط والأبجدية إلى قلمين رئيسين وهما:

أحدهما: القلم المسند أو قلم حمير-كما سلف الذكر-، وهو أقدم الأقلام العربية

التي عرفت في شبه الجزيرة إلى يومنا هذا. فقد دوّنت به النصوص والنقائش المعينية والسبائية والقتبانية والحميرية وهي لهجات عربية جنوبية.

والتي تعرف الباحثون على لغة الجنوب من خلال هذه الكتابات التي اكتشفوها في مستوى متطور لها قواعد نحوية وصرفية، إذ أظهرت البحوث الأثرية الحديثة أنّ استعمال الخط المسند لم يكن خاصا باليمن فحسب، وإنما كان معروفا ومستعملا في كلّ أنحاء شبه جزيرة العرب [21] .

فقد عثر الباحثون في منطقة العروض على كتابات عربية تعود إلى مرحلة الدراسة مسجلة بالخط "المسند"، وهذه النصوص التي وجدت رغم قلتها فإنها ذات أهمية بالغة بالنسبة للباحثين في هذا المجال [22] .

ولعلّ ما يؤكد ما ذهب إليه الباحثون عن إنتشار الخط المسند في شبه الجزيرة العربية قاطبة وجوده في حفريات أواسط شبه الجزيرة، حيث عثر في "قرية الفاو" وفي مواضع أخرى من "وادي الفاو" وفي "وادي الدواسر" على كتابات بالخط المسند [23] .

غير أنّ هذه النصوص كانت قصيرة تتناول قضايا شخصية.

يمتاز قلم المسند عن الخط العربي بمميزات وهي: أن حروفه منفصلة، ويكتب من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ومن الأعلى إلى الأسفل وبالعكس, حروفه ضخمة بالمقارنة مع الحروف العربية المعروفة، وجمله غير مشكولة، وإنما تكتب بحروف صامتة [24].

وبالإضافة إلى المسند فقد عثر الباحثون خلال القرنين: التاسع عشر والعشرين على كتابات ثمودية وصفوية ولحيانية متأخرة عن الخط المسند ومتفرعة منه.

يعود تاريخ بعضها إلى ما قبل التقويم الميلادي بينما يعود بعضها إلى ما بعده. وهذه النصوص هي الأخرى قصيرة وشخصية لم تتعرض إلى مسائل عامة أيضا.

أما عن طريقة الكتابة, فإن العرب القدامى كانوا يكتبون بطريقة الحفر بقلم من حديد أو سكين "مدببة" أو آلة حادة أخرى على الحجارة والصخر والخشب والمعادن على غرار سكان ما بين النهرين، الذين كانوا يكتبون بالمسمار.

أما القلم الثاني: فهو القلم النبطي [25] المتأخر، حروفه منفصلة ومتصلة وأبجديته مثل القلم الأول "أبجد هوز"، وقد طوّروه، فصار يكتب بالحبر بيسر وبشكل سريع عند حفره على الخشب أو الحجر أو المعدن مثلا، يناسب كل الفئات المتعلمة التي تستعمله.

ويذكر المؤرخون[26] . أن الخط العربي الذي كتب به أهل الحجاز قبل الإسلام وبعده متطور عن الخط النبطي.

وكان القلم الذي يكتبون به هذه الخطوط العربية مصنوعا من القصب في الغالب وقد استمرّ لدى طلبة الكتاتيب قرونا طويلة بعد ذلك، وقد ورد ذكر هذا النوع من القلم في أشعار عرب الحجاز، فقال رجل كندي من أهل دومة الجندل:

لا تجحدوا بعماء عليكم فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الحزم حتى حفظهم من المال ما قد كان شتى مبعثرا

واتقنتم ما كان بالمـال مهمـلا وطـامنتهـم مــا كان منه منفّرا
فاجريتم الأقلام عودا و بدأت وضاهيتهـم كتاب كسرى و قيصرا
وأغنيتم عن مسند الحي حمـير ومازبرت في الصحف أقبال حميرا .

وهذا يعني أن عرب الحجاز قد تخلوا عن القلم المسند بعد أن تعلموا الخط النبطي كما تعني هذه الأبيات أيضا أن الكتابة كانت منتشرة وكما ذكر هذا القلم في الشعر العربي ذكر أيضا في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم ﴾ [27]، ﴿ ن والقلم وما يسطرون﴾[28] .

﴿ ولو أنّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إنّ الله عزيز حكيم ﴾ [29] .

واستخدموا المداد كأهمّ مادة للكتابة مصنوع من مواد متعددة كالفحم المسحوق والصمغ المحروق والماء، وقد ذكر المداد في القرآن وفي الشعر العربي.

وقال تعالى: ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ [30].

قال الشاعر العربي الضبي [31] :

فلم يبق إلا دمنة ومنــازل كما ردّ في خط الدواة مدادها

ولاشك أن ذكر الكتابة والقلم والمدادفي القرآن الكريم وفي آداب العرب يدلّ دلالة مؤكدة على انتشار هذه الأمور بين الطبقات الاجتماعية المتعلمة في عرب شبه الجزيرة قديما.

أما أوعية الكتابة فكانت متعددة مثل: جريد النخل (العسب) وأصول العسف التي تلاصق الجذع، وعظام أكتاف الحيوانات والجلود والقراطيس، وقد جاء ذكر هذه المواد في عدد من المصادر العربية: عند ابن منظور في لسان العرب، والزبيدي،في تاج العروس والطبري في التفسير، ونحو ذلك من المصادر، التي تناولت هذه الأدوات.

هذا وقد ذكر أحد الباحثين أن عبارة الكتابة ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم نحو ثلاث مائة مرة ونيف.

وجملة القول أن بعض الدارسين يعتقدون أن الخط العربي الذي اشتق من القلم النبطي اكتمل في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، كما اكتملت اللغة، التي كتبت بها النصوص- السالفة الذكر- واستقامت في شكلها النهائي وأصبحت لغة أدبية عامة هي الفصحى.

وبناءا على هذا الرأي فإن اللغة قد مرّت حسب تعاقب تواريخ النصوص بمراحل متدرجة من لغة نبطية مثل: نص "أم الجمال الأولى" إلى لغة نبطية عربية مثل نص "النمارة" إلى لغة عربية مستقلة مثل نص "حوران اللوجات" ونص "أم الجمال الثانية".

فإذا أخذنا بعين الاعتبار تاريخ خط النمارة المدون سنة 328م ثلاثمائة و ثمانية وعشرين ميلادية, فيمكن القول أنّ بداية التطور الحقيقي للكتابة العربية، كان في مطالع القرن الرابع الميلادي وهو الخط الذي نزل به القرآن الكريم بعد ذلك بحوالي ثلاثة قرون.

الهوامش

1- فؤاد حسنين علي: "اشتراكيتنا قبل الإسلام"، مجلة الرسالة، العدد1104، السنة الثانية والعشرين, الخميس 9 من ذي القعدة، 1384هـ، 11 مارس 1965.
2- محمد عثمان علي: في أدب ما قبل الإسلام، دار الاوزاغي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان:1406هـ/1986م، ص.14
3- زكي المحاسن: شعر الحرب في أدب العرب، ط2، دار المعارف، مصر:1970، ص.46.
4- حسين مروة: المرجع السابق، ص ص.245-246.
5- تفسيره، المصدر السابق، ج1، ص.11، جواد علي: المرجع السابق، ج8، ص.563.
6- لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، المرجع السابق، ص.52.
7- عبد الرحمان عمار:" البعد القومي للأدب العربي"، مجلة الآداب، العددان:8،9، السنة السابعة والعشرون، دمشق:1979، ص ص.18-19.
8- جواد علي: المرجع السابق، ج8، ص.202.
9- سورة البقرة، الآية: .282
10- سورة البقرة الآية:79.
11- سورة القلم: الآية 1.
12- النحاس (أبو جعفر): شرح القصائد التسعة المشهورات، تحقيق: أحمد حطاب، طبعة بغداد، د.ت، ص.14.
13- العسيب: هو جريد النخل المستقيم يقشط خرصها بحيث تصبح صالحة للكتابة.
14-إمرأى القيس ديوان: تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، مصر:1958، ص.854.
15- أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، المرجع السابق، ص.843.
16- أحمد كمال زكي: ديوان الهذليين الجاهليين والإسلاميين "القسم الأول"، مصورة عن مطبعة، دار الكتب، طبعة القاهرة:1965، ص.64.
17- الحيوان: المصدر السابق، ج1، ص.18
18- دراسة في مصادر الأدب، ط4، دار المعارف، مصر:1997، ص.17.
19- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط2، دار المعارف، مصر:1972، ص.65.

20- المكان نفسه .
21- جواد علي: المرجع السابق، ج8، ص.202.
22- المكان نفسه.
23- المرجع نفسه، ج8، ص.672.
24- المرجع نفسه، ج8، ص.670.
25- الأنباط من العرب الشماليين، أقاموا دولة لهم في جنوب ما يسمى اليوم بالمملكة الأردنية الهاشمية عاصمتها "بطرا" واعتمدوا في كسب معيشتهم على التجارة وفرض الرسوم على القوافل التجارية العابرة لأرضهم واشتغل بعض منهم بتربية المواشي والزراعة والحرفة، وقد ظلّت دولتهم قائمة إلى أن قضى عليها الرومان سنة 106م.
26- الألوسي: بلوغ الأرب، المصدر السابق، ج3، ص.368.
27- سورة العلق، الآيات:1،2،3،4.
28- سورة القلم، الآية:1.
29- سورة لقمان، الآية:27.
30- سورة الكهف: الآية:109.
31- الضبي: المصدر السابق، ص.379.